﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النّساء: 165]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان أنّ الرّسل المذكورين مبشّرون ومنذرون، فلا عذر بعد بلاغ

ولمّا أورد مواكب الأنبياء والمرسلين في الأمم السّابقة، مَن سمَّى منهم، ومن لم يُسَمِّ منهم؛ بيّن في هذه الآية: أنَّهم قاموا بما أمرهم اللّه به من البشارة والنّذارة، وأنَّه لم تبق حجَّة لمحتجٍّ أن يقول: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة: 19].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُجَّةُۢ﴾: أصل الحجِّ: القصد، والحُجَّةُ: الدَّليلُ والبُرْهانُ، والوَجْه الَّذي يكون بِهِ الظّفر عِنْد الخُصومَة، وَالدَّلالة المبيِّنة للمحَجّة، أي: المقصد المستقيم الَّذي يقتضي صحَّة الأمر، وَإِنَّما سمِّيت حُجَّة؛ لِأَنَّها تُحَجُّ، أَي: تُقصَد؛ لِأَنّ القَصْد لَها وإليها، وَكَذَلِكَ مَحَجَّة الطَّريق: هِيَ المَقْصد والمسلك[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما من رسول إلّا بَشَّرَ وذكّر، وحينها قد أعذر من أنذر

هؤلاء الرُّسل أرسلهم اللّه إلى النّاس مبشِّرين لأهل الطَّاعة بسعادة الدّارين، ومنذرين للعصاةِ والمكذِّبين بالشَّقاء في الدّارين؛ وذلك حتّى لا يكونَ للنَّاس أيُّ عُذرٍ يحتجُّون به عند اللّه بعدَ إرساله الرُّسل: ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [القصص: 47]، وكان اللّه عزيزًا لا يغلبه متعنِّت ولا مكابر، حكيمًا في كل صنع صنعه.

(1) الخَليل، العَين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور: (حجّ)، لسان العرب: (حجج).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجمع بين البشارة والنِّذارة، في قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

جمع بينهما للدَّلالة على بيان مهمَّة الرُّسل في البشارة والنِّذارة، فقوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾، أي: مخبرين أقوامهم بما يسرُّهم، والسُّرور يؤدِّي إلى تغيُّر يبدو على وجه الإنسان وبشَرَته، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: من الإنذار، وهو: الإعلام المصاحَب بالتَّخويف، والزَّجر عن القبيح، وهذا مناسب لوظيفة الرسل، بخلاف الأنبياء؛ فوظيفتهم بين قومهم إظهار الصلاح؛ ليكونوا قدوة بين قومهم، فيسترشد بهم من سلمت فطرته، ويقتدي بهم من يريد الصَّلاح.

لا حجَّة للعباد على الله، بعد إرسال الرُّسل بهداه

دلالة حذف متعلَّق قوله تعالى: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ في الآية:

حذف متعلَّق مبشِّرين اختصارًا، والتَّقدير: مبشِّرين المؤمنين الَّذين يعملون الصَّالحات بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، فيكون الثَّواب لمن أطاع، وحذف متعلَّق منذرين اختصارًا، والتَّقدير: منذرين الكافرين والعاصين وغيرهم بالنَّار، فيكون العقاب لمن عصى، وقد "نصب على المدحِ أو بإضمار أرسلنا أو على الحال، بأن يكون رسلاً موطئاً لما بعده أو على البداية من رُسلاً الأوّلِ أي مبشّرين لأهل الطّاعةِ بالجنّة ومنذرين للعُصاة بالنّار"[1].

مـــن زاوَلَ الصّالحات نجا، ومـــن اقـــترف السّيئاتِ هلك

دلالة تقديم مبشِّرين على منذرين في قوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

قدَّم البشارة على النِّذارة؛ لأنَّها تسعد القلوب وتطيِّب الخواطر، وتجعل المدعوِّين يقبلون على ما يلقيه النَّبيُّ ﷺ، عليهم، ويشير إلى اطمئنان المكلَّف بثواب ما يفعله من الطَّاعة، ولأنَّ البشارة وعد، والإنذار وعيد، والوعد مقدَّمٌ على الوعيد.

مـــن مـقـاصـد الإسلام تقديم الـبـشـارة على النّذارة

سرُّ التَّعبير بالرُّسل دون النَّبيِّين، عكس ما في سورة البقرة:

آثر التَّعبير بالرُّسل هنا، وبالنَّبيِّين في سورة البقرة؛ لأنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/256.

السِّياق مختلف؛ فسياق سورة البقرة مبنيٌّ على العموم بدليل قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]؛ لذلك ناسب التَّعبير بالنَّبيِّين دون المرسلين؛ لأنَّ النَّبيَّ أعمُّ من الرّسول؛ فناسب العموم في النَّبيِّين العموم في لفظ (أمَّة)؛ أمَّا موضع سورة النِّساء؛ فمبنيٌّ على التَّخصيص؛ لأنَّه سبق هذا الموضع قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ الآية؛ فناسب التَّعبير هنا بالرُّسل للتَّوافق في السِّياق وتأكيد التَّخصيص.

التّخصيص في السّياق يؤكّد خصوصيّة الأمّة المحمّديّة

دلالة الإتيان بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾:

جاءت هذه الجملة لتشير إلى لطف الله ورحمته بعباده، حيث لم يدعهم إلى عقولهم؛ ليتعرَّفوا عليه سبحانه، بل رفد هذه العقول بذلك النُّور الهادي الَّذي حمله إليهم رسل الله؛ ليكونوا على هدًى وبصيرة؛ فلا عذر لمعتذر ولا حجَّة لكافر[1].

حجّة الكفران بعد بلاغ الرّسل داحضة

دلالة التَّعبير بلفظ النَّاس في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ النَّاس؛ لإفادة الاستغراق، فيشمل النَّاس جميعًا، المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ فالكلُّ مطالبٌ بالإيمان بالله ورسله، فلا حجّة لهم، أي لا "مَعذرةٌ يعتذرون بها قائلين لَوْلا أرسلتَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فيبيّنَ لنا شرائعَك، ويعلّمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك، لقصور القوةِ البشريةِ عن إدراك كلياتِها[2].

الإسلام دين الحقائق، وحجّته قائمة على كلّ الخلائق

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿حُجَّةٌۢ﴾، دون لفظ (احتجاج):

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿حُجَّةٌۢ﴾ دون أن يقول: (احتجاج)؛ لأنَّ الحجَّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تخلُّصًا، ولذلك يقال للَّذي غلب مخالفه بحجَّته: قد حجَّه، وأمَّا الاحتجاج؛ فهو إتيان المحتجِّ بما يظنُّه حجَّة، ولو مغالطة، يقال:

الحجّة مبكّتة للمخالف

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/1012.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/256.

احتجَّ، ويقال: حاجَّ؛ إذا أتى بما يظنُّه حجَّة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]؛ فالحجَّة لا تطلق حقيقة إلَّا على البرهان والدَّليل النَّاهض، المبكت للمخالف[1].

دلالة الإطناب في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾:

الإطناب المفيد في السّياق يجلي المعنى ويجمّله

في الجملة إطناب، حيث عبَّر عن المقصود بلفظ زائد عليه لفائدة، وهي بيان العلَّة في البشارة والنِّذارة، "وهذا من كمال عزّته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرّسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضا من فضله وإحسانه، حيث كان النّاس مضطرّين إلى الأنبياء أعظم ضرورة، تقدّر، فأزال هذا الاضطرار، فله الحمد وله الشّكر"[2].

سرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء، في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

ما كان على الله فهو أمان وفلاح

عبّر بأداة الاستعلاء ﴿عَلَى﴾؛ ليفيد أنَّ المراد بالحجَّة: هي الحجَّةُ واجبةُ القبول، على المَلك الَّذي اختصَّ بجميع صفات الكمال، في ألَّا يعذِّب عصاتهم؛ لأنَّ الحُجَّة قد تطلق على مطلق العذر، ولو كان مردودًا[3]، و" هو إشارة إلى ألطاف الله، ورحمته بعباده، حيث لم يدعهم إلى عقولهم ليتعرّفوا إليه، ويستقيموا على سبيله، بل رفد هذه العقول، بذلك النّور الهادي الّذي حمله إليهم رسل الله، لتكون رؤيتهم لآيات الله واضحة، وطريقهم إليه مشرقا"[4].

دلالة التّنكير في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾:

عدلُ الله تعالى أن لا حجّة بعد إقامة الحجّة

جاء لفظ الحُجَّة منكَّرًا؛ لقطع معاذير النَّاس، فلا يجدون عذرًا، يعتذرون به قائلين: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: 134]؛ لذلك كان المراد إقامة الحجَّة البيِّنة والدَّلالة القاطعة الَّتي تدلُّ عَلى صِدْقِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/46.
(2) السّعديّ: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 214.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1012.

المُدَّعي وَأَحَقِّيَّةِ المُعْتَذِرِ، لأنَّها تَقْتَضي عَدَمَ المُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ أَوِ التَّقْصيرِ، والمُرادُ هُنا: العُذْرُ البَيِّنُ الَّذي يوجِبُ التَّنَصُّلَ مِنَ الغَضَبِ والعِقابِ[1]، "فإذا أخذ الكافر بكفره، فذلك هو الحكم الّذي حكم به الكافر على نفسه، ورضيه لها، فلا عذر لمعتذر، ولا حجّة لكافر"[2].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

حكم أهل الفترة وكلِّ من لم تبلغه الدَّعوة

دلَّ هذا التَّعبير على أن الله تعالى يحبُّ الإعذارَ من النَّاس؛ ولذلك أرسل الرُّسل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾، ولولا إرسالُ الرُّسل؛ لكان للنّاس أن يحتجُّوا في الآخرة على عذابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]، وهذا حكم أهلِ الفَترة وكلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوة[3]، فالله منصف لعباده، رحيم بهم، ولا يعذّب إلّا بعد إرسال الرّسول.

دلالة الإظهار في مقام الإضمار في قَوْلِهِ: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

ما جرى مجرى المثل، حسُن به التّعبير وجَمُل

أظهر في مَقام الإضْمارِ، فلم يقل: (بَعْدَهُمْ)؛ لِلاهْتِمامِ بِهَذِهِ القَضِيَّةِ واسْتِقْلالِها في الدَّلالَةِ عَلى مَعْناها؛ حَتّى تَسيرَ مسْرى الأَمْثال[4].

سرُّ التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ دون الجارّ في (من بعد):

تقريرات الله وأحكامه تستغرق الزّمان برمّته

عبّر بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وأسقط الجارَّ، فلم يقل: (مِنْ بَعْد)؛ ليفيد استغراقَ النَّفي لجميعِ الزَّمان الَّذي يوجد بعد إرسالِ الرُّسل وتبليغهم للنَّاس[5].

من لطائف التَّذييل بلفظي: (العزيز الحكيم):

جاء هذا التَّذييل؛ لبيان الصِّفة الإلهيَّة المتجلِّية على العباد في هذا المقام المناسب؛ لما ورد في صدر الآية من إرسال الرُّسل؛ لإقامة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/39.
(2) عبد الكريم يونس الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1012.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/60.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/43.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.

الحجَّة على النَّاس، "ونعلم أنّ الحقّ لا يجرّم سلوكاً إلّا بنصّ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد الّتي لا يصحّ الخروج عنها"[1].

الـلـه الـعـزيـز الحكيم، قبل أن يعاقب يُشَرِّع الضّوابط

دلالة الإتيان بوصفي العزيز والحكيم:

جاء تذييل الآية بالعزيز الحكيم؛ لأنَّه أراد أن يقطع بإرسال الرُّسل احتجاج من يقول: لو بعث إليَّ الرَّسول؛ لآمنت، فهو -تعالى- عزيزٌ، لا يغالِبه شيء، ولا حُجَّة لأحد عليه، وهو مع ذلك حكيم، تصدر أفعاله عن حكمة، فكذلك قطع الحُجَّة بالرُّسل حكمة منه تعالى[2].

لا يصلح في هذا المقام إلّا وصفا العزّة والحكمة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/138.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»